تصحيح المفاهيم

آيات من كتاب الله شاع فهمها على خلاف وجهها الصحيح

محمد سكحال

باحث برابطة العالم الإسلامي

لا غرو أن الأصل والطريق المهيع اللاحب، إلى فهم جوهر الإسلام، وفقه لباب الدين الذي ارتضاه الله لعباده، هو كتاب الله تعالى العزيز، إذ هو كلامه المباشر الذي أنزله على رسوله مترجما في لسان عربي مبين، وإذ ذاك فمن رزقه الله تعالى فهما في كتابه المجيد، فقد آتاه خيرا كثيرا بتمكينه من الفقه في الدين من معينه الصافي، ولأمر ما جمع النبي ﷺ لابن عباس في دعائه بين معرفة التفسير وفقه الدين، فقال: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل".

ودون ذلك الفهم الذي يختص الله تعالى به على من يشاء من عباده، ويفضل فيه من اختصهم به بعضهم على بعض درجات، أدوات وقواعد هي المفتاح للفهم السليم والمدرجة إلى التفسير الصحيح، فمن توفر على الأدوات وانضبط بالقواعد، اهتدى إلى معاني الآيات البينات بقدر جهده واجتهاده وتوفيق الله له، ومن ذلك المعرفة بلسان العرب وأساليبها في التصرف بالكلام إفرادا وتركيبا، ومعرفة أسباب النزول وهي الوقائع الاجتماعية التي كانت السبب في نزول قرآن بشأنها، فهي لا جرم تساعد على تجلية المراد وإن كانت لا تقصر عمومه وإطلاقه على تلك الواقعة، فالعبرة بعموم اللفظ وإنما تجري وقائع الأسباب منه مجرى المثال. وقد بدأ علم التفسير كغيره من العلوم الشرعية، بتلقي الصحابة له من رسول الله ﷺ غضانديا، ثم منهم إلى التابعين، ثم دخل في طور التدوين فالتصنيف، وكان أولا ممزوجا مع غيره في كتب الحديث، ثم جرد في تصانيف تخصه، وكان قاصرا في البداية على التفسير بالمأثور، ثم انضم إليه التفسير بالرأي فتكامل بذلك وصار فنا مستقلا بنفسه،

هنالك ظهرت بعض المشارب والمذاهب في تفاسير شاملة مستوعبة لما بين دفتي المصحف، حادت بأصحابها عن السنن الأقوم، فتأولوا القرآن على غير تأويله، ونأوا به عن سواء مراده بضروب من التعسف والتكلف، اتباعا للأهواء ومحاولة لاستنطاق القرآن بالدلالة على صحة أباطيلهم، وصدق أكاذيبهم.

ولست في هذه الوجازة بسبيل أن أعرض نماذج من تلك المشارب والمسالك المنحرفة في تفسير كتاب الله، فهو موضوع تكفل بدراسته عدد من الباحثين من أبرزهم الشيخ محمد حسين الذهبي رحمه الله في كتابيه "التفسير والمفسرون" و "الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن"، وإنما أكتفي بعرض بعض الآيات التي شاع بين أهل زماننا فهمها على غير وجهها الصحيح، داعيا إلى أن نستن بسنة سلفنا رحمة الله عليهم في شدة التحرز من القول في كتاب الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

الآية الأولى:

قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد: ١١)، فهم بعض المعاصرين من معناها أن الله لا ينقل الناس من حال الضعف والتخلف إلى الضد من ذلك، حتى يكونوا هم الذين يتعاطون أسباب النهضة والقوة من داخل أنفسهم، ولعل المفكر الجزائري المعروف مالك بن نبي رحمه الله، من الرواد الذين فهموا أن الآية تدل على هذا المعنى، واعتبروها سنة من السنن في التغيير الاجتماعي، واتخذوها شعارا للبناء الحضاري، ونحن لا ننازع في أن التغيير الاجتماعي ينطلق من داخل النفس الإنسانية، وأن صياغة الأفراد فكرا وسلوكا هو منطلق كل تنمية راشدة وغاية كل دعوة إصلاحية واعية، لكن ننازع في أن تكون هذه الآية ترمي إلى هذا المعنى، وقد يكون قوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ (العنكبوت: ٦٩) أولى بالدلالة على صلة جهود التغيير بنتائجها وثمراتها.

وقد بدأ في بعض التوجهات الفكرية الإسلامية، اشتطاط في الدندنة حول السنن

الإلهية في التغيير الاجتماعي، وغلو في الاعتداد بها، إلى حد الظن بأن تغيير المجتمعات من ضعف إلى قوة، ومن جهل إلى علم، ومن فساد إلى صلاح، منحصر في المُكنة البشرية، بممارسة الأسباب التي سخرها الله للبشر جميعا مؤمنهم وكافرهم، وكأن منة الله عليهم لا يكون إلا في تمكينهم من تلك الأسباب، وليس وراء ذلك شيء من نفحات لطفه بهم، على حين أن القرآن الكريم يقص علينا ما يدل على أن فضل المولى على عباده ابتدائي محض، كما في قوله تعالى عن بني إسرائيل: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الأرض﴾ (القصص: ٥–٦)، وفي قوله عن الرعيل الأول من هذه الأمة: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾ (الأنفال: ٢٦). وإذا تبين هذا، فالمعروف من تفسير الآية أن الله تعالى لا ينقل قوما من حال النعمة والأمن ورغد العيش، إلى الضد من ذلك، حتى يتعاطوا هم أسباب ذلك النقل من سوء أعمالهم وفساد أخلاقهم، فيستوجبوه حكما عدلا وجزاء وفاقا، كما قال تعالى: ﴿وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ (النحل: ١١٢)، يقول إمام المفسرين الطبري في تفسير الآية الأولى: يقول تعالى ذكره: إن الله لا يغير ما بقوم من عافية ونعمة، فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم، حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك، بظلم بعضهم بعضا، واعتداء بعضهم على بعض، فتحل بهم حينئذ عقوبته وتغييره. اهـ

وأولى ما فُسر به القرآن الكريم القرآن نفسه، فإن كلام الله يبين بعضه بعضا، وعلى هذا فالآية الآنفة بينتها آية أخرى يقول الله تعالى فيها: ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الأنفال: ٥٣)، قال البغوي: أراد أن الله تعالى لا يغير ما أنعم على قوم، حتى يغيروا هم ما بهم، بالكفران وترك الشكر، فإذا فعلوا ذلك غير الله ما بهم، فسلبهم النعمة.

الآية الثانية:

قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾ (الحجرات: ١٣)، وقد شاع في أهل زماننا، حمل معنى التعارف في هذه الآية، على التعارف الاختياري الذي يتم بين شخصين، بحيث يعرّف كل واحد منهما صاحبه على هويته بناء على رغبة سابقة منهما بذلك، وربما يتجاوز هذا التعارف حدود الهوية الشخصية إلى الهوية الثقافية التي أبرزها الانتماء الديني، لقصد تبادل احترامه في التعامل المرتقب أو التحاور على القضايا الخلافية في ذلك.

فمعنى الآية على هذا الفهم، يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، ثم نشرناكم في الأرض، مشعّبين شعوبا ومفصلين قبائل، لكى يبادر بعضكم للتعرف على بعض آخر، فكأنه جعل تقسيم البشر إلى مجموعات تربطها أنساب عالية مشتركة، سببا يثير لديهم رغبة التعارف بين أفراد أو طوائف من مجموعتين مختلفتين، فيتعرف التركي على العربي، والفارسي على الرومي، والعدناني على القحطاني، والمضري على الربعي، والحميري على الأزدي.

فهل هذا هو معنى الآية عند أهل العلم بالتفسير ؟ والجواب: كلا، والسياق لا يقتضيه ولا يساعد عليه، بل معنى التعارف في الآية معنى طبعي عندهم خارج عن الكسب، وهو التمايز والتباين بالأنساب، كتباينهم بالألقاب وتمايزهم بالخصائص والملامح الشخصية، فيعرف كل واحد بنسبه البعيد المنتهي إلى الشعب، ثم بنسب ينحصر بدوائر متناقصة متداخلة، من القبائل والفصائل والعشائر والعمائر، إلى أن يصل إلى الدائرة الصغرى التي تضم الأسرة المشتملة على الأب والجد والقرابة القريبة.

ثم بين الله سبحانه وتعالى بعد ذلك أن الأنساب ليست مقصودة لأكثر من أن ينعرف كل إنسان في آبائه وأجداده، ولا تقتضي أي تفاضل ذاتي يفاخر به بعضهم على بعض، ما دام الجميع متساوين في الولادة من مَائَيْ ذكر وأنثى، ومنتهين في نسبهم إلى أب واحد وأم واحدة، وأن الفضل إنما يحصل بالعمل الصالح لا بالانتساب إلى قوم لهم أعمال مجيدة

ومآثره حميدة، فقال تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾، قال الطبري: يقول تعالى ذكره: إنما جعلنا هذه الشعوب والقبائل لكم أيها الناس، ليعرف بعضكم بعضا في قرب القرابة منه وبعده، لا لفضيلة لكم في ذلك، وقربة تقرّبكم إلى الله، بل أكرمكم عند الله أتقاكم. اهـ

فبان بهذا أن الفعل في قوله: "لتعارفوا" ليس مسندا في حقيقة معناه إلى الناس، بل إلى بارئهم، وإنما هم منفعلون به، وأن الآية ليست في شيء مما يزعمه البعض من أن فيها ما يدل على الدعوة إلى التعارف والترغيب فيه، بل إنما سيقت لتقرير المساواة بين بني البشر في أصل الخلقة النوعية والشخصية، وإبطال ما كان يتغنى به الناس في الجاهلية من التفاخر بالآباء والأنساب والأحساب، وأن التقوى هي المعيار الوحيد للكرامة عند الله تعالى، كما قال النبي ﷺ: "الحسب المال، والكرم التقوى"، والله أعلم.

الآية الثالثة:

قوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ (هود: ١١٨، ١١٩)، فما معنى الاختلاف المذكور في هذه الآية؟ وما مرجع اسم الإشارة في قوله: ﴿ولذلك خلقهم﴾؟ وهل يصح أن يكون عائدا على الاختلاف؟ فإن كان كذلك احتمل أن يكون معنى الآية: لا يزال البشر منقسمين إلى ملل شتى ومذاهب وطوائف، منهم المؤمنون والملحدون، ومنهم الموحدون والمشركون، وأنه تعالى خلقهم لأجل الاختلاف، فيكون الاختلاف في الدين مقصودا من مقاصد الخلق وغاية من غاياته، ويمكن أن يبني بعض الناس على هذا أن التعددية الدينية، أمر ينسجم مع الفطرة الكونية، فينبغي تقبلها بصدر رحب، والمحافظة عليها باعتبارها قيمة اجتماعية ثقافية!

ولو كان معنى الآية كذلك لم يكن في استثناء المرحومين فائدة ولا معنى، إذ كان يكون تأويلها: ولا يزال البشر مختلفين فيما بينهم إلا المرحومين، فليسوا بمختلفين مع غيرهم! فهذا معنى واضح الفساد لما فيه من الخُلف، إذ إن اختصاصهم بالرحمة ينبىء عن وجود اختلاف بينهم وبين غيرهم، وأنهم تميزوا بشيء يقتضي ذلك الاختصاص، وإذ ثبت

هذا، فما معنى قوله: "مختلفين" وقوله بعد ذلك: ﴿ولذلك خلقهم﴾؟ والجواب أستخلصه من مثال أقدمه بين يديه، لو قلت: لا يزال الناس يعانون من الأزمة الاقتصادية إلا من رحم ربك، كان واضحا من ذلك أن المستثنين ناجون من شر متصيد معناه من مضمون الكلام قبل الاستثناء، وهو المعاناة الناشئة عن الأزمة الاقتصادية، فكذلك المستثنون بالرحمة في الآية، ناجون من شر متصيد من مضمون الكلام قبل الاستثناء، وهو الاختلاف، فثبت بهذا الإيضاح أن ذلك الاختلاف الذي هم واقعون فيه، شر كله وأنه مهلك لهم في عاقبة أمرهم، مورد لهم النار، وإذا كان كذلك فهو اختلاف غير مرضي البتة، ولا يستحق أن يشاد به، لأنه من الاختلاف الذي معناه: معاندة الحق، فكأنه قال: ولا يزالون معاندين للحق، ناكبين عنه، إلا فئة أدركها الله برحمته، فآمنت به واتبعته، ثم عطف تعالى على ذلك بقوله: ﴿ولذلك خلقهم﴾ يعني: خلق الناس ليتنجزفيهم ما سبق من حكمه تعالى بأن يصير بعضهم إلى الشقاوة بكفره ومعاندة الحق، وبعضهم إلى السعادة بفعله لضد ذلك، وهذا معنى قول مالك بن أنس رحمه الله في جوابه لأشهب لما سأله عن هذه الآية: فريق في الجنة وفريق في السعير.

فاللام في الجملة الأخيرة من الآية، لام العاقبة والصيرورة كما قال الآلوسي، وليست لام التعليل، فهي كاللام في قوله تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس﴾ (الأعراف: ١٧٩)، وقوله: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا﴾ (القصص: ٨)، وذلك أن الله تعالى اقتضت حكمته في أن يخلق خلقا للسعادة وخلقا للشقاوة، ثم يسر كلا لما خلق له بما ابتلاهم به من الإيمان ومقتضياته العملية، حتى يكون مصيرهم جزاء لأعمالهم، فجعل الإيمان بالله واتباع رسله طريقا إلى اليسرى، وضدّه طريقا إلى العسرى، والله أعلم.

وإذا تبين هذا فكيف يسوغ أن يستدل بالآية على إقرار الاختلاف في القضايا الأصولية والإشادة به، بلْهَ جعلها عنوانا لكتاب أو شعارا لفكرة ؟ إن هذا لشيء عجاب !

الآية الرابعة:

قوله تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ (الكهف: ٢٩)،

هل هذه الآية ناطقة بإقرار حرية العقيدة؟ على معنى أن الله تعالى أمر فيها رسوله بأن يكتفي بالقول للناس: إن هذا الدين الحق إنما أتى من عند الله، ثم يطلق لهم المشيئة بعد ذلك في أن يختاروا ما يشاؤون من إيمان أو كفر، فما له عليهم من سلطان ولا سبيل، هل هذا هو المراد من الآية ؟

والحقيقة أنه ليس فيها ما يدل على إقرار حرية العقيدة ولا على ضدها، إذ لو أقر كتاب الله – سواء في هذه الآية أو في ما يشاكلها، كقوله تعالى: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ (التكوير: ٢٨)، وقوله: ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾ (المزمل: ١٩، الإنسان: ٢٩) لو أقر حرية العقيدة كإقرار حرية التملك والتنقل والقَطَن، للزم من ذلك أن لا يؤاخذ الله الكافر على كفره بشيء في الدنيا تشريعا، ولا في الآخرة تكوينا، واللازم باطل فالملزوم مثله، وإنما خرج الكلام في الآية مخرج التهديد والتخويف من عاقبة الاختيار للكفر، نظيره قوله تعالى: ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ (النحل: ٥٥، الروم: ٣٤)، بدليل قوله بعد ذلك: ﴿إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها﴾ (الكهف: ٢٩)، قال الطبري في تأويل الآية: وليس هذا بإطلاق من الله الكفر لمن شاء، والإيمان لمن أراد، وإنما هو تهديد ووعيد. اهـ، وإنما مثل ذلك مثل من يقول لقوم ينذرهم: هذان طريقان أحدهما آمِن والآخر مهلك، وقد نصحت لكم فمن شاء فليسلك مسلك الأمان ومن شاء فليسلك مسلك الهلاك، ثم لا يلومن إلا نفسه، فهذا لايعد بيانا لحرية الاختيار منه، وإنما للتحذير من الخطر الموجود في أحد المسلكين، والله أعلم.

(مع الشكر لمجلة رابطة العالم الإسلامي)

☆☆☆